تموز 2026 مجلة دراسات في الإنسانيات والعلوم التربوية العدد 14
July 2026 Journal of Studies in Humanities and Educational Sciences No. 14
Print ISSN 3006-3256 Online ISSN 3006-3264

"تقنيات الذاكرة واستعادة الماضي في رواية "ساعة بغداد" نهج سردي بنيوي"

م. م. قصي حميد خيون
qusaih.alshablawe@uokufa.eda.iq
جامعة الكوفة / كلية الأداب

المستخلص
هدف هذا البحث لتناول تقنيات الذاكرة واسترجاع الماضي في رواية "ساعة بغداد" للروائي العراقي شاكر الراوي، من خلال نهج سردي هيكلي قائم على الإنجازات النظرية للعلم السردي الحديث، خاصة الأدوات التحليلية الرصينة التي قدمها جيرار جينيه في كتابه "خطاب القصة" الذي يهتم بدراسة البنية الزمنية للسرد وآليات استرجاع الماضي. سعى البحث إلى كشف الأساليب الفنية التي يستخدمها الروائي للتعامل مع الزمن السردي، بما في ذلك تقنيات دخول الأحلام كوسيلة للوصول إلى الذكريات، واستخدام الأشياء كمحفزات للتذكر، والكتابة في السجل للحفاظ على الذاكرة الجماعية.بالإضافة إلى ذلك، استخدام التذكر من خلال صيغة "أتذكر" كاسترجاع سردي، والارتباك بين الحلم والواقع كبنية سردية مركبة، وبنية الرواية ككتب داخلية تربط الماضي بالمستقبل. أظهر البحث كيف تشكل هذه التقنيات نظاما سرديا متكاملا يعيد بناء ذاكرة مكانة بغداد في ضوء تجارب الحروب والهجرة والنزوح، مما يبني نصا سرديا يستثمر إمكانات السرد في الحفاظ على الذاكرة الجماعية من النسيان والهلاك. اعتمد البحث نهجا سرديا هيكليا يعتمد على تحليل البنية العميقة للنص السردي، مع الاستفادة من أدوات التحليل الزمني التي قدمتها العلوم السردية الحديثة ، ونظرية موريس هالبوش للذاكرة الجماعية لفهم العلاقة بين الذاكرة الفردية والذاكرة الجماعية. توصل البحث إلى عدد من النتائج المهمة، أبرزها أن الذاكرة في هذه الرواية تتجاوز البعد الفردي لتصبح ذاكرة جماعية مشتركة بين عدة شخصيات.
الكلمات المفتاحية: تقنيات السرد، الذاكرة، استرجاع الماضي، استرجاع ذكريات، السرد البنيوي.

Memory Techniques and the Retrieval of the Past in the Novel “The Hour of Baghdad”: A Structural Narrative Approach

A.L. Qusay Hamid Khayoon
qusaih.alshablawe@uokufa.eda.iq
University of Kufa / College of Arts

Abstract

This research aims to address memory techniques and the retrieval of the past in the Iraqi novelist Shakir Al-Rawi’s novel *The Hour of Baghdad*, through a structural narratological approach grounded in the theoretical achievements of modern narratology—particularly the rigorous analytical tools proposed by Gérard Genette in his book *Discourse of the Story*, which focuses on the study of narrative temporality and the mechanisms of retrieving the past. The study seeks to reveal the artistic methods used by the novelist in dealing with narrative time, including dream-entry techniques as a means of accessing memories, the use of objects as triggers for remembering, and writing in the ledger to preserve collective memory.In addition, the research examines remembering through the form “I remember” as a narrative retrieval device, the confusion between dream and reality as a complex narrative structure, and the novel’s structure as internal books that link the past to the future. The study shows how these techniques form an integrated narrative system that reconstructs Baghdad’s

“place/memory” in light of experiences of war, migration, and displacement—thus building a narrative text that leverages the possibilities of storytelling to preserve collective memory from forgetting and destruction.

The research adopts a structural narratological approach based on analyzing the deep structure of the narrative text, drawing on the tools of temporal analysis offered by modern narratology, and on Maurice Halbwachs’s theory of collective memory to understand the relationship between individual memory and collective memory. The study reaches a number of important findings, most notably that memory in this novel goes beyond the individual dimension to become a shared collective memory among several characters.

Keywords: Narrative techniques; Memory; Retrieval of the past; Remembering/retrieving memories; Structural narration.

مقدمة

تعد الذاكرة من أبرز المواضيع التي شغلت الفكر البشري عبر العصور، حيث ارتبطت بأسئلة الوجود والهوية والمعنى، وأصبحت مجالا خصبا للدراسات الأدبية والنقدية والفلسفية في العصر الحديث. لقد نما الاهتمام بالذاكرة في الدراسات السردية بشكل كبير في العقود الأخيرة، خاصة في ضوء التحولات الاجتماعية والسياسية التي شهدها العالم العربي، والتي جعلت الذاكرة الفردية والجماعية موضوعا إشكاليا تتقاطع فيه الأسئلة الجمالية مع الأسئلة التاريخية والسياسية (شهيد، 2008: 12). في السياق العراقي تحديدا، أصبحت الذاكرة السردية مرآة تعكس ضخامة التجارب التي مر بها الإنسان العراقي من حيث الحروب والحصارات والهجرة والنزوح، مما جعل الروائيين العراقيين يبحثون عن صيغ سردية جديدة لاستحضار وكتابة الماضي من أجل حفظه من النسيان.

وفي هذا السياق، تعد رواية "ساعة بغداد" للروائي العراقي شاكر الأنبري، مثالا على هذه العلاقة الحميمة بين السرد والذاكرة. تتناول الرواية، التي تصنف كأدب ما بعد الحرب، تجربة جيل كامل من العراقيين الذين عاشوا أهوال الحروب المتعاقبة ثم وجدوا أنفسهم محملة بذكرى ثقيلة كانوا يخشون فقدانها. في هذه الرواية، استثمر الروائي مجموعة واسعة من تقنيات السرد التي تهتم باستحضار الماضي واستعادته، مرتديا ثوب الراوي الذي يحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه من ذكرى مكان غارق في بحر من النسيان والنزوح والتغيير.

ركز علم السرد الحديث على دراسة العلاقة بين السرد والذاكرة، وقدم جيرار جينيه، في كتابه "خطاب القصة: دراسة في المنهجية" الصادر عام 1972، إطارا نظريا رصينا لتحليل البنية الزمنية للسرد، مميزا بين زمن القصة وزمن الخطاب. وتحديد آليات التعامل مع الزمن السردي مثل الفلاش باك، والتوقع (الفلاش فوروارد)، والتوقف الزمني. كما ساهمت نظرية الذاكرة الجماعية التي طورها موريس هالبواخ في فهم العلاقة بين الذاكرة الفردية والذاكرة الجماعية، وكيفية تكوين الذكريات في سياق اجتماعي محدد. يعد الجمع بين هذين المنظورين النظريين أساسا منهجيا مناسبا لدراسة تقنيات الذاكرة في رواية ساعة بغداد.

يؤمن بول ريكور في كتابه "الزمن والسرد" بأن السرد هو الوسيلة التي يعيد بها الإنسان تشكيل تجربته الزمنية ويمنحها معنى، إذ أن الرواية ليست مجرد قصة لأحداث وقعت في الماضي، بل هي عملية لإعادة بناء الماضي في ضوء أسئلة الحاضر. تعد دراسة رواية "ساعة بغداد" ذات أهمية خاصة في ضوء التحولات الكبرى التي شهدها العراق والتي أثرت بعمق على هيكل المجتمع العراقي وذاكرته الجماعية، حيث تعرض العراق لسلسلة من الحروب المتتالية التي بدأت من حرب إيران والعراق (1980-1988)،

مرورا بحرب الخليج الثانية في 1991. ثم الحصار الاقتصادي الذي استمر لأكثر من عقد، إلى الغزو الأمريكي في 2003.

أدت هذه التحولات إلى تفكك النسيج الاجتماعي وتحطيم الذاكرة الجماعية، مما جعل الحفاظ على الذاكرة أمرا وجوديا للعراقيين، خاصة أولئك الذين هاجروا أو تم تهجيرهم قسرا من أماكن نشأهم. في هذا السياق، تبرز رواية "ساعة بغداد" كمحاولة أدبية لتسجيل ذاكرة مكان مهدد بالاختفاء، من خلال استخدام تقنيات سردية متنوعة تجعل الذاكرة محورا محوريا تدور حوله أحداث وأحداث وشخصيات الرواية. تعد هذه الرواية نموذجا فريدا في الأدب العراقي المعاصر من حيث تركيزها على العلاقة بين الذاكرة والهوية، وبين الكتابة ومقاومة النسيان.

مشكلة البحث وأسئلته

يبدأ هذه البحث من مشكلة مركزية: كيف استخدم شاكر الراوي تقنيات سردية مختلفة في روايته "ساعة بغداد" لاستحضار الماضي واستعادة ذكرى مكان بغداد؟ ما هي الوظائف الجمالية والدلالية التي تؤديها هذه التقنيات في بناء الرواية؟ تنقسم هذه المشكلة المركزية إلى مجموعة من الأسئلة الفرعية التي يسعى البحث للإجابة عليها، منها: ما هي التقنيات السردية الرئيسية التي يتبناها الروائي لاسترجاع الماضي؟ وكيف يتداخل حلم الواقع مع بنية الرواية السردية؟ ما هو دور الكتابة والتدوين في الحفاظ على الذاكرة الجماعية؟ كيف يساهم هيكل الرواية ككتاب داخلي في ربط الماضي بالمستقبل؟ ما طبيعة العلاقة بين الذاكرة الفردية والذاكرة الجماعية في بنية السرد؟ وكيف تساهم الأشياء والأماكن في استحضار الذكريات؟

فرضيات البحث هي أن الروائي استخدم مجموعة متكاملة من تقنيات السرد لاستحضار الماضي، وأن هذه التقنيات مدمجة لتشكيل نظام سردي متماسك. أفترض البحث أيضا أن الذاكرة في الرواية ليست فردية بحتة، بل هي ذاكرة جماعية مشتركة يشاركها عدة شخصيات. كما تفترض أن الكتابة في السجل وسيلة أساسية لمكافحة النسيان والحفاظ على الهوية الجماعية في ظل ظروف الهجرة والنزوح.

أهمية البحث

يستمد هذه البحث أهميتها من عدة اعتبارات متعددة الأبعاد .

1- ندرة الدراسات التي تناولت تقنيات الذاكرة في الرواية العراقية المعاصرة من منظور سردي بنيوي، حيث كانت الدراسات السابقة تهيمن عليها مناهج موضوعية تركز على محتوى الذاكرة بدلا من آلياتها السردية .

2- الحاجة إلى فهم أعمق للعلاقة بين السرد والذاكرة في ضوء التحولات الكبرى التي شهدها العراق، والمشاكل الناتجة عن الهوية والانتماء والذاكرة الجماعية .

3- تقديم نموذج تحليلي يمكن استخدامه في دراسة الأعمال الروائية الأخرى المتعلقة بالذاكرة .

4- المساهمة في إثراء دراسات السرد العربي من خلال تطبيق النهج السردي البنيوي على نص رواية عراقية معاصرة.

أهداف البحث

هي مجموعة من الأهداف المنهجية والمعرفية، منها :

1- كشف التقنيات السردية التي يستخدمها الروائي لاسترجاع الماضي وتحليل آليات عملها في بنية النص .

2- تحليل بنية الزمن السردي في الرواية من خلال أدوات التحليل الزمني التي توفرها العلوم السردية، موضحا وظائف الذاكرة في إعادة بناء الهوية الجماعية الفردية والجماعية.

3- تقديم قراءة هيكلية للرواية في ضوء الإنجاز النظري لعلم السرد، وتحديد العلاقة بين الذاكرة الفردية والذاكرة الجماعية في بنية السرد.

4- كشف البنية الرمزية للساعة ودلالاتها في السياق السردي العام للرواية.

منهجية البحث

يعتمد هذا البحث منهجًا سرديًا بنيويًا يركز على تحليل البنية العميقة للنص السردي، عبر توظيف أدوات التحليل الزمني المتعلقة بتنظيم الوقائع من ترتيب ومدة وتواتر، وذلك لدراسة العلاقات بين زمن القصة وزمن الحوار، وتحليل آليات الاسترجاع والاستباق، وكشف البنية السردية للذاكرة في النص الخيالي. كما يستعين البحث بنظرية الذاكرة الجماعية التي تميز بين الذاكرة الفردية والذاكرة الجماعية، وتبين كيفية تشكل الذكريات داخل إطار اجتماعي محدد. ويُعد الجمع بين المنهجين ضروريًا لفهم الجدل القائم بين بنية السرد وبنية الذاكرة.

يتضمن المنهج المعتمد مستويين متكاملين من التحليل: المستوى الأول يُعنى بتحليل تقنيات السرد الجزئي، مثل الاسترجاع، ودخول الأحلام، والكتابة في السجل، واستخدام الأشياء كمحفزات للذاكرة. أما المستوى الثاني فيُعنى بتحليل البنية العامة للرواية وعلاقة مكوناتها بعضها ببعض في إطار نظام سردي متكامل. ويتطلب هذا النهج التركيز على النص السردي نفسه، واستخراج المقاطع التي تدل على تقنيات الذاكرة، وتحليلها بدقة تكشف آلياتها ووظائفها في سياق البنية السردية. كما يُستخدم المنهج المقارن عند الحاجة، بين النص المدروس ونصوص سردية أخرى، لإبراز خصوصية التقنيات المستخدمة.

أولا: الإطار النظري للبحث

.1مفهوم الذاكرة في السرد

الذاكرة محور مركزي في عملية السرد، حيث أن السرد بطبيعته حدث استرجاع يستحضر من الماضي إلى الحاضر في الحاضر في الخطاب. يشير بول ريكور في كتابه "الزمن والسرد" إلى العلاقة العضوية بين الزمن والسرد، معتبرا أن السرد هو الوسيلة التي يعيد بها الإنسان تشكيل تجربته الزمنية ويمنحها معنى (ريكور، 2006: 45). يتضمن اختيارا، وترتيبا، وتفسيرا للذكريات المتاحة. لذلك، الرواية التي تتناول الذاكرة ليست نسخة من الماضي بل هي إعادة تمثيل إبداعية له، مبنية على التفاعل بين ما كان وما هو موجود.

في نظريته للذاكرة الجماعية، ميز موريس هالبواخ بين الذاكرة الفردية والذاكرة الجماعية، موضحا أن الذاكرة الفردية لا تتشكل في فراغ، بل في إطار اجتماعي محدد يوفر لها أطر وسياق الذاكرة (هالبوخ، 2011: 93). هذا التمييز ضروري لفهم السرديات التي تتعامل مع الذاكرة الجماعية المشتركة، كما في رواية "ساعة بغداد"، التي تعيد بناء ذاكرة محلية للبغدادية الكاملة من خلال مشاركة ذكرياتها بين شخصيات متعددة. الذاكرة في الرواية ليست ملكية فردية بحتة، بل هي ذاكرة جماعية تتقاطع فيها ذكريات أعضاء المجموعة وتدمج لتشكل صورة كاملة للماضي المشترك.

ترتبط الذاكرة في السرد بعدة وظائف مترابطة، منها الوظيفة الأساسية التي تساهم من خلالها الذاكرة في بناء هوية الشخصيات وتحديد مواقفهم تجاه العالم، والوظيفة التفسيرية التي من خلالها توضح الذكريات الأحداث الجارية وربطها بأسبابها وسياقاتها، والوظيفة الوثائقية التي يتحول من خلالها السرد من مجرد حكاية خرافية إلى وثيقة تسجل تفاصيل شيء معين الفترة التاريخية، والوظيفة التعويضية التي تعوض من خلالها الذكريات عن فقدانها للأشياء والأماكن والأشخاص في الواقع (يعقوب، 1997: كل هذه الوظائف تتجلى في رواية "ساعة بغداد" بطرق متعددة ومتكاملة، مما يجعل الذاكرة محور الأحداث التي تدور حولها أحداث الرواية بأكملها.

يرتبط مفهوم الذاكرة في السرد بعدة مشكلات نظرية ومعرفية، بما في ذلك مشكلة العلاقة بين الذاكرة والتاريخ، حيث أن الذاكرة الفردية والجماعية ليست مجرد وسيلة لاسترجاع الماضي، بل أداة لتفسيره وإعادة بنائه. ترتبط الذاكرة أيضا بمشكلة الهوية، حيث تتشكل الهوية الفردية والجماعية من خلال الذاكرة وتتطور من خلالها. تظهر هذه الحميمية بين الذاكرة والهوية بوضوح في ساعة بغداد، حيث يسعى الشخصيات للحفاظ على هويتهم من خلال الحفاظ على ذاكرتهم.

.2جيرار جينيه وتحليل الزمن السردي

جيرار جينيه هو أحد أبرز المنظرين في علم السرد في القرن العشرين، وفي كتابه "خطاب القصة: دراسة في المنهجية"، قدم إطارا نظريا شاملا لتحليل السرد (جينيه، 1997: 105). ركز جينيه على دراسة العلاقة بين زمن القصة وزمن الخطاب، مميزا بين ثلاثة أنواع من العلاقات الزمنية: العلاقات الترتيبية التي تهتم بترتيب الأحداث وتوافقها مع التسلسل الزمني الطبيعي، والعلاقات الدائمة التي تهتم بسرعة

السرد وعلاقته بمدة الأحداث، والعلاقات المتكررة التي تتعلق بتكرار سرد الأحداث بشكل مشابه. العلاقات الترتيبية أكثر صلة بموضوع الذاكرة واسترجاع الماضي، لأنها تتضمن دراسة آليات الفلاش باك والتوقع.

يعرف الجنيت الاسترجاع بأنه "أي إشعار بحدث حدث قبل اللحظة التي يصل فيها السرد إلى زمن القصة"، ويعرف ذلك بالاسترجاع (جينيت، 1997: 118). يميز بين أنواع متعددة من الاسترجاع حسب امتداده الزمني ووظيفته السردية، بما في ذلك الاسترجاع الخارجي، الذي يتعلق بالأحداث التي سبقت بداية القصة، والاسترجاع الداخلي، الذي يتعلق بالأحداث التي تلي البداية ولكن تسبق الوضع الحالي. كما يميز بين الاسترجاع التكاملي، الذي يأتي لملء فجوة في السرد، والاسترجاع المتكرر، الذي يشير إلى أحداث سبقته. اذكر ذلك لغرض التأكيد أو التوضيح أو التذكير. تعد هذه المفاهيم أدوات تحليلية أساسية لدراسة تقنيات الذاكرة في رواية "ساعة بغداد"، التي تكثر الاسترجاع والعودة إلى الماضي.

يعرف جانيت التوقع أو الفلاش فورورد بأنه "أي مناورة سردية تتكون من إعلان حدث سيحدث لاحقا" (مرتضد، 1998: 156). قد يكون الترقب مرتبطا خارجيا بالأحداث التي تلت نهاية القصة، أو داخليا مرتبطا بالأحداث التي تحدث بين لحظة السرد الحالي ونهايته. تستخدم رواية "ساعة بغداد" بشكل كبير تقنية التوقع في "كتاب المستقبل"، التي تخبر القارئ بمصير الشخصيات بعد هجرتهم من بغداد، مما يمنح السرد طابعا تفسيريا يربط الماضي بالمستقبل في علاقة جدلية مستمرة ومتكاملة.

يقدم الجينيت أيضا مفهوم "التوقف الزمني" أو "الوصف"، والذي يشير إلى توقف السرد عن متابعة الأحداث ليكرس نفسه للوصف والتأمل. هذا التوقف مناسب لاستحضار وتأمل الذكريات، وهو ما يتكرر كثيرا في رواية "ساعة بغداد"، حيث تتوقف الراوية عن سرد الأحداث لتتأمل في الأشياء والأماكن وتسترجع ذكرياتها بها. يقدم "جينيت" أيضا مفهوم "التلخيص"، والذي يشير إلى اختصار فترة زمنية طويلة في جملة أو فقرة قصيرة، وهو ما يتكرر في الرواية عندما تلخص الراوية سنوات حياتها في جملة واحدة.

.3تقنيات الاسترجاع في السرد

هناك العديد من التقنيات التي يلجأ إليها الروائيون لاستحضار الماضي في نصوصهم، وتتراوح بين البسيطة والمعقدة، بين المباشرة وغير المباشرة. واحدة من أبرز هذه التقنيات هي الفلاش باك، وهي التقنية الأكثر شيوعا لاستحضار الماضي في السرد (يوسف، 2018: 89). يتم تحقيق الفلاش باك من خلال مقاطعة متعمدة في تسلسل السرد، للعودة إلى الأحداث السابقة وإبلاغ القارئ عنها. هذا الانقطاع متعدد الأوجه، قد يكون مفاجئا أو مقدما، قد يكون قصيرا أو ممتدا، وقد يأتي بكلمات الراوي أو الشخصيات.

تقنية مهمة أخرى هي استخدام المحفزات الحسية كوسيلة لاستحضار الماضي، وهي تقنية تعتمد على طريقة عمل الذاكرة البشرية فعليا، حيث ترتبط العديد من الذكريات بمحفزات حسية محددة مثل الروائح، والأصوات، والصور، والأماكن. استثمر الروائيون هذه الخاصية الذكرية في بناء نصوصهم، حيث صنعوا الأشياء والأماكن، والروائح جسورا تعبر بين الحاضر والماضي.(العيد، 2012: 134(

إحدى التقنيات الحديثة في استحضار الماضي هي استخدام الكتابة والكتابة كوسيلة للحفاظ على الذاكرة، وهي تقنية تصبح فيها الكتابة بديلا أو مكملة للذاكرة البشرية. السجل الذي يسجل فيه الشخصيات تفاصيل حياتهم وذكرياتهم يصبح أرشيفا يحفظ ما قد يتسرب من ذاكرة البشر بفعل الزمن والنسيان. تعبر هذه التقنية عن وعي عميق بهشاشة الذاكرة البشرية وحاجتها للدعم الخارجي، بالإضافة إلى الإيمان بقوة الكلمة المكتوبة في مقاومة الزمن والنسيان. هذه التقنية مركزية في ساعة بغداد، حيث يصبح التسجيل الذي كتبته الراوية وصديقتها وسيلة أساسية لمكافحة النسيان والحفاظ على ذاكرة الحي من الفقدان.

ثانيا: الدخول إلى الأحلام كتقنية لاسترجاع الذكريات

.1البنية السردية للأحلام في الرواية

في رواية "ساعة بغداد"، تشكل الأحلام مساحة سردية موازية للواقع، تتداخل معه وتتقاطع معه بطرق متعددة ومعقدة. ما يلفت الانتباه في استخدام الأحلام في هذه الرواية هو أنه ليس مجرد انفصال وهمي عن الواقع الحقيقي، بل هو آلية فعالة لاسترجاع وإعادة بناء الذكريات. يفتتح الروائي نصه بمشهد حالم لافت

للنظر، يعلن من خلاله طبيعة العلاقة بين الراوي والأحلام، والتي ستظل محور الرواية بأكملها. الراوي، الذي "لا يحلم على الإطلاق"، يجد في دخوله إلى أحلام الآخرين طريقة للوصول إلى ذكرياتهم، ثم إلى ذكرياته الخاصة أيضا.

"دخلت بقرة حلمها، دخلت دراجة، دخلت جسر، دخلت سيارة عسكرية، دخلت سحابة، دخل غراب، دخل شجرة، دخل طفل، دخل طائرة، دخل منزل مهجور، دخل قطة، دخل خزان ماء، دخل شارع، دخل زرافة، دخلت صورة، دخلت أغنية، دخلت ساعة جدارية، دخلت سفينة... وهكذا بدأت الأمور تتوالى تدريجيا بينما كانوا يستعدون لتأليف حلم جديد. تحركت البقرة بعد أن شعرت بالملل، وتحركت الخروف، وتحرك الحصان، وتحركت الدراجة، ثم تحرك كل شيء في دورة من الفوضى بلا نهاية... هل هذا حلم؟!" (الراوي، 2016: 8(

هذا التجدد السريع للأشياء في الحلم يشبه طريقة عمل الذاكرة في استرجاع الذكريات، حيث ترتبط الأشياء وتتسلسل بطرق قد تبدو عشوائية لكنها تخضع لمنطق داخلي خاص. ولا الأشياء التي تدخل الحلم عشوائية، بل هي نفس الأشياء التي ستشكل جوهر الذكريات في الرواية: المنزل، الشارع، الساعة، الصورة، الأغنية. الجديد في هذه التقنية هو أن الراوي لا يحلم بنفسه فقط، بل يدخل أحلام الآخرين ويطارد ما تبقى فيها لتنظيفها.

"دخلت حلمها، ركبت الدراجة وطاردت الأشياء المتبقية، طردت كل شيء من رأسها، نظفت حلمها، وضعت ساعة الحائط فيه وخرجت. شاركت معها أحلاما لأنني لا أحلم أبدا، لا أعرف لماذا يحلم الناس، وما حاجتهم لهذه الأحلام؟!" (الراوي، 2016: 8(

هذا الدخول إلى أحلام الآخرين يذكرنا بفكرة الذاكرة الجماعية التي تحدث عنها هالبوخ، حيث أن ذاكرة الفرد ليست ملكه وحده، بل هي جزء من ذاكرة جماعية مشتركة يمكن للآخرين مشاركتها (هالبوخ، 2011: 108). الراوي الذي لا يحلم يجد في أحلام صديقته نادية مادة ذكرى يستعيدها بدخوله عالمها المثالي وتطهيره من الفوضى. ساعة الحائط التي تركها في الحلم تحمل دلالة رمزية مهمة جدا، لأنها تمثل الوقت الذي يراد الحفاظ عليه من النسيان، وهو العنصر الوحيد الذي يفترض أن يبقى في الحلم بعد إزالة أشياء أخرى.

من المشهد الافتتاحي يتضح أن الحلم في هذه الرواية ليس مجرد تقنية نفسية لكشف أعماق الشخصيات، بل هو هيكل سردي مركزي يساهم في بناء العلاقة بين الشخصيات وربط ذكرياتهم ببعضها البعض. الراوي الذي لا يحلم يحتاج إلى شخص آخر يحلم له، وشخص آخر يشاركه ذكرياته. هذا التداخل بين أحلام الشخصيات يعبر عن فكرة أن الذاكرة الجماعية تتشكل من خلال تداخل وترابط الذكريات الفردية.

.2الحلم السردي يعمل في استرجاع الماضي

الوظائف السردية التي يؤديها الحلم كثيرة في ساعة بغداد، التي تتجاوز الكشف عن الأعماق النفسية للشخصيات إلى دور أكثر جوهرية في بنية الرواية بأكملها. في هذه الرواية، يمثل الحلم جسرا يعبر من الحاضر إلى الماضي، ومن الواقع إلى المتخيل، ومن الذات إلى الآخر. أبرز هذه الوظائف هي: الوظيفة الاستعادية التي يسمح من خلالها الحلم بالعودة إلى الأحداث السابقة دون الحاجة لكسر التسلسل الزمني مباشرة، والوظيفة التفسيرية التي يساهم من خلالها الحلم في تفسير مواقف وسلوكيات الشخصيات في الحاضر من خلال ربطها بأحداث الماضي، والوظيفة البناءة التي يندمج من خلالها الحلم مع الفصول الحقيقية ليشكل بنية سردية متماسكة معا.

"قبل أن أغمض عيني، رأيتها تبتسم وهي نائمة، تحرك شفتيها ببطء كما لو كانت تتحدث إلى نفسها. اقتربت منها بدهشة ووضعت وجهي مباشرة أمام وجهها، رأيت بقعا ملونة تتحرك حول جبينها، خيالات لم أرها من قبل تظهر، تختفي ثم تعود، كنت في تلك اللحظة أرى أحلامها، وهذه هي المرة الأولى في حياتي التي أدخل فيها أحلام شخص ما. في ذلك الوقت، كانت تحلم بي. أمسكت بيدي وحلقت بي عاليا فوق بيوت بغداد القديمة، حلقنا في الهواء، نحلق ونحلق حتى أصبحنا كالنحلتين الصغيرتين لا يراها أحد" (الراوي، 2016: 13(

يجسد هذا المشهد الحلمي العلاقة بين الصديقين كعلاقة ذاكرة في جوهرها، حيث يحلم كل منهما بالآخر، وذكرى كل منهما مرتبطة بذاكرة الآخر. من اللافت أن الطيران فوق المنازل القديمة في بغداد في الحلم

يشكل نوعا من استكشاف المكان في الذاكرة، حيث تتحول المدينة في الحلم إلى مساحة يمكن التأمل فيها من الأعلى، والتجول بحرية فيها غير ممكن في الواقع. وهذا يقودنا إلى وظيفة أخرى للحلم في الرواية: الوظيفة التعويضية التي يعوض من خلالها الحلم فقدانهم لمكانهم في الواقع، حيث حرمتهم الهجرة والتهجير من العودة إلى أماكنهم القديمة (بهراوي، 1990: 178). الحلم هنا ليس هروبا من الواقع بقدر ما هو محاولة للحفاظ على الذاكرة المكانية المهددة بعوامل النسيان والتغيير.

وظيفة مهمة أخرى هي الوظيفة الرمزية التي من خلالها يقدم الحلم صورا رمزية تكثف معان عميقة يصعب التعبير عنها مباشرة. الأطياف الملونة التي تحيط بجبين ناديا النائمة، والخيالات التي تظهر، وتختفي ثم تعود، كلها صور تعبر عن طبيعة الذاكرة نفسها: جل متحول يظهر ويختفي، يجمع بين الواضح والغموض في الوقت نفسه. الصورة الحالمة للنحلتين الصغيرتين، التي لا يراها أحد، تعبر عن حالة الاغتراب والإخفاء الذي يعيشان فيه الشخصين في الواقع، حيث يبدوان صغيرين وهزيئين أمام قوى عظيمة تفوقهما، لكنهما في الوقت نفسه قادران على الطيران والطيران فوق المكان واسترجاع ذلك في ذاكرتهما.

ثالثا: صيغة "أتذكر" كاسترجاع سردي

.1آليات التذكر من خلال "تذكر"

تمثل صيغة "أتذكر" واحدة من أبرز تقنيات السرد التي استخدمها الروائي لاستحضار الماضي في رواية "ساعة بغداد". هذه الصيغة، التي تتكرر في صفحات الرواية بمعدل ملحوظ، ليست مجرد وسيلة لغوية لسرد حدث سابق، بل هي علامة سردية تعلن انفتاح النص على زمن الماضي وإقامة جسر بين زمنين: زمن السرد الحالي وزمن الحدث الماضي. تذكر هذه التقنية بما سماه جيرار جينيه "الاسترجاع الداخلي"، أي العودة إلى أحداث سبقت القصة لكنها لاحقة من بدايتها، ومرتبطة. الحالة الحالية للسرد لها علاقة سببية أو تفسيرية (جينيه، 1997: 134). صيغة "أتذكر" في الرواية تتخذ أشكالا عديدة حسب السياق السردي الذي تعرض فيه.

"عندما أحاول أن أتذكر تلك الأيام، أتذكر الأيام الباردة جدا أو أيام المطر، وأيام الصيف لا أتذكر إلا الليالي التي كنا ننام فيها على السطح. أتذكر كل تلك الليالي كما لو كانت ليلة واحدة، ليلة كنت أعد فيها النجوم البعيدة، وعندما أنام، تسقط هذه النجوم في الحديقة، فكان المطر غزيرا في قصتي" (الأنبري، 2009: 24)

هنا، تلعب الصيغة دور المحدد لجودة الذكريات، حيث لا يتذكر كل شيء، بل أجزاء مختارة تخضع لمنطق الذكريات. يذكرنا هذا الاختيار بفكرة أن الذاكرة ليست أرشيفا محايدا يحفظ كل شيء، بل هي عملية انتقائية لإعادة البناء تخضع لمعايير ذاتية وجماعية (شهيد، 2008: 67). وفي أحيان أخرى، تأتي صيغة "أتذكر" لتستحضر ذكريات جماعية مشتركة، كما في هذا المقطع الذي يعيد بناء مشهد من ملجأ أثناء الحرب.

"جاءت فتيات صغيرات وجلسن معنا، أتذكر ماروة، بيدا، ويجدان، ريتا، وملائكة اللاتي تسميهن ناديا الشيطان بلا سبب، أعلم... نهضت أنا ونادية من منزلنا وسرنا حول زوايا الملجأ، نعد الوجوه بضوء الفوانيس، أردنا أن نعرف الأشخاص الذين نعيش بالقرب منه في نفس الحي، هذه والدة ريتا، وهذا أبو مناف، وهذا مناف، وهذه أخته منال، وهذا أخوه الصغير غسان نائم في حضن والدته. هذه أم مروى، وهذا أخوها" (الراوي، 2016: 17)

هنا، تتقاطع الذاكرة الفردية مع الذاكرة الجماعية، حيث يتذكر الراوي أسماء الفتيات اللواتي كن معها في الملجأ، واللواتي بدورهن جزء من ذاكرة الحي بأكمله. ذكر الأسماء بهذا التجمع يؤسس فكرة أن الذاكرة في هذه الرواية ليست فردية بحتة، بل هي ذاكرة جماعية مشتركة بين عدة شخصيات، كل منهم يحمل جزءا من الصورة العامة ويساهم في إكمالها. يساهم هذا التنسيق في بناء نص سردي جماعي يشارك فيه الشخصيات ذكرياتهم ويربطونها ببعضهم البعض.

.2التباين بين "أتذكر" و"لا أتذكر"

ما يميز الرواية هو أن الراوي لا يستخدم فقط صيغة "أتذكر" لإعلان استحضار الماضي، بل يستخدم أيضا صيغة "لا أتذكر" للإعلان عن فشل أو عدم دقة الذاكرة. هذا التباين بين الشكلين يشكل تقنية سردية

مميزة تعبر عن طبيعة الذاكرة البشرية، التي ليست مطابقة للواقع الماضي، بل هي إعادة بناء انتقائية وتحويلية. ومن المثير للاهتمام أن عبارة "لا أتذكر" تستخدم لإعلان النسيان التام بقدر ما تستخدم للتركيز على أجزاء محددة من الذاكرة على حساب أجزاء أخرى.

"في يوم من الأيام، ربما كان يوم جمعة في أبريل، ذهبت مع عائلتي إلى حديقة زاورا، كانت عائلة ناديا وبيدا ووالدتها معنا، ولا أتذكر إذا كان والدها معنا. جلسنا على العشب نأكل طعامنا الذي جلبناه من المنزل. بعد فترة، تركنا والدينا يجلسون وركضنا نحن الثلاثة بين الأشجار لصيد الماعز، وعندما اقتربنا من الحديقة رمينا بعض الطعام على الزرافات الجائعة" (الأنبري، 2009: 20(

تتذكر الراوية تفاصيل دقيقة عن المكان والزمان والأشخاص الحاضرين، لكنها لا تتذكر وجود أبو بدعة. هذا النسيان الجزئي ليس عشوائيا، بل يعبر عن طبيعة الذاكرة التي تحتفظ ببعض التفاصيل وتتجاهل أخرى. عبارة "في الغالب" التي تسبق تعريف اليوم تعبر عن عدم يقين الذاكرة، مما يمنح السرد طابعا واقعيا يتجاوز التسجيل المباشر للأحداث لمحاكاة كيفية عمل الذاكرة الفعلية.

"منزل جدتي واسع ومحاط بأشجار طويلة يمر فيها سائقون صغار مع ضفادع خضراء تقفز فيها. في البركة الصغيرة خلف السياج تسبح بطتان بيضاويتان تليها صغارها الأربعة أو الخمسة. لا أتذكر كم عدد فراخ البط الصغيرة، لكنني أتذكر أنهم كانوا يمشي فوق الماء دون أن يبتلوا. على حافة البركة، جلست قطة رمادية لم تكن عمياء ولا مبللة وهي تراقب صغار البط وتمدد لسانها في الماء البارد" (الراوي، 2016: 25(

هنا، تعلن الراوية أنها لا تتذكر عدد البط بدقة، لكنها من ناحية أخرى، تتذكر سمة لافتة لافتة لها: تمشي فوق الماء ولا تبتل. هذا التباين بين ما لا يتذكر وما يتذكر يظهر أن الذاكرة تختار تفاصيل معينة من الماضي تثري صورة الذاكرة وتمنحها معنى (ياكتين، 1997: 189). الذاكرة لا تسجل كل شيء بشكل محايد، بل تختار ما يثير اهتمامها وتثري تجربتها، حتى لو جاء ذلك على حساب الدقة العددية والحسابات الكمية.

يتكرر هذا اللقاء بين الشكلين في نقاط مختلفة من الرواية، مما يؤسس فكرة أن الذاكرة ليست أرشيفا كاملا، بل إعادة بناء انتقائية. وفي مكان آخر، يقول الراوي: "نادية دائما تنسى وأنا دائما أتذكر" (الراوي، 2016: 21)، مما يؤسس لقاء بين شخصيتين مختلفتين في التعامل مع الذاكرة. هذا اللقاء بين الشخصيات يثري الدلالات النفسية والفلسفية للرواية ويفتح آفاقا متعددة للتفسير.

.3الوظائف السردية لصيغة "أتذكر"

الوظائف السردية التي تؤديها صيغة "أتذكر" في رواية "ساعة بغداد" عديدة، وتساهم في بناء نص سردي متماسك يعيد تشكيل الماضي في ضوء أسئلة الحاضر. واحدة من أبرز هذه الوظائف هي وظيفة التأطير، التي تسمح من خلالها صيغة "أتذكر" بانتقال سلس بين الزمن السردي الحالي وزمن الحدث الماضي، دون الحاجة إلى انقطاع مفاجئ في تسلسل السرد. يؤطر التنسيق المقطع المستذكر ويحدد بدايته ونهايته، مما يسهل على القارئ متابعة التحولات الزمنية دون ارتباك أو ارتباك.

الوظيفة التفسيرية التي تساهم من خلالها الصيغة في شرح المواقف والسلوكيات الحالية للشخصيات من خلال ربطهم بالأحداث الماضية وتجاربهم السابقة. غالبا ما تظهر الذكريات مشاعر معينة، أو علاقات محددة بين الشخصيات، أو مواقف خاصة. وظيفة أخرى مهمة هي الوظيفة الوثائقية، التي تحول السرد من مجرد حكاية شخصية إلى وثيقة تسجل تفاصيل عصر تاريخي كامل. تتذكر الراوية ليس فقط أحداثها الشخصية، بل أيضا الحقائق التاريخية الشائعة مثل الحرب والحصار والهجرة.

"في كل مرة أتذكر فيها هذا الحادث، أطلق سراح زوجها فورا من السجن وأبحث عن عمل له، وأعيد المرأة من النهر وأضع يدها بين يدي أطفالها وأجعلهم يمشون على الجسر مرتدين أجمل الملابس وأعطيهم أحد البيوت المتبقية في محلنا، أعطيهم أحد هذه البيوت التي تركها آباؤهم وهاجروا ثم أقول لنفسي لماذا هاجروا؟!" (الراوي، 2016: 141(

هنا، تتحول الذاكرة من مجرد استرجاع للماضي إلى أداة لإعادة كتابته بشكل خيالي، حيث تعيد الراوية تمثيل الحدث المأساوي في خيالها لإصلاح ما أفسده الواقع، في نوع من العلاج الخيالي للجراح الناتجة عن الأحداث الصادمة. كما تخدم صيغة "أتذكر" وظيفة التركيز على التفاصيل الإشارية التي قد تمر دون

ملاحظة في السرد العادي، مما يساهم في جعل الذكريات أكثر وضوحا وترسخا في ذهن القارئ (العيد، 2012: 178). ومن الجدير بالذكر أن الراوي يركز على تفاصيل معينة دون غيرها، مما يؤسس هرمية من الذكريات تعطي الأولوية لبعض التفاصيل على غيرها.

رابعا: الكتابة في السجل كوسيلة لمكافحة النسيان

1.السجل كأداة سردية هيكلية

يمثل "التسجيل" في رواية "ساعة بغداد" تقنية سردية مركزية حيث تتداخل الكتابة مع الذاكرة، والكتابة بالذاكرة، والنص مع التجربة الحياتية. السجل الذي تجده الراوية وصديقتها نادية في مكتبة والدهما، حيث يسجلان تفاصيل حياة المنطقة وسكانها، ليس مجرد دفتر عادي، بل هو أداة سردية هيكلية تؤسس فكرة أن الذاكرة تحتاج إلى دعم خارجي للحفاظ على مادتها من الضياع. أطلقوا على السجل اسم "ساعة بغداد - تاريخ المحلة"، في إشارة واضحة إلى العلاقة بين الزمن والذاكرة.

"لمكافحة النسيان في حينا أيضا، فكرت أنا ونادية في كتابة عبارات تفسيرية عن الأمور، بدأنا هذه التجربة بأنفسنا، كتبنا في دفتر أزرق وجدناه في مكتبة والدي: هذه صديقتي ناديا، عيناها خضراوان وشعرها أصفر، أنا أطول منها قليلا، التقيت بها في ملجأ خرساني مقاوم للحرب، كان ذلك في عام 1991 وذهبنا معا إلى المدرسة الابتدائية والمتوسطة والإعدادية، وهي الآن تدرس في جامعة بغداد، وأنا في جامعة التكنولوجيا، وهي تحب أحمد، وأنا أحب فاروق" (الراوي، 2016: 204(

هنا، تتجلى وظيفة الكتابة كامتداد للذاكرة، فما لا يمكن حفظه في الذاكرة البشرية بسبب محدوديته وضعفه، يمكن تسجيله في سجل يحفظه من النسيان ويجعله متاحا للعودة إليه في أي وقت. ومن الجدير بالذكر أن التسجيل لا يقتصر على تسجيل الذكريات الشخصية، بل يتوسع أيضا ليشمل ذكريات المنطقة بأكملها. يحول هذا التدوين الجماعي السجل من سيرة فردية إلى سير جماعية مشتركة، ومن ذاكرة فردية خاصة إلى ذاكرة جماعية مسجلة ومتاحة للجميع.

"خرجنا ذات صباح وكتبنا على البيوت، أسماء سكانها القدماء، تاريخ مغادرتهم المنزل، والبلدان التي يعيشون فيها الآن، ثم وضعناها في السجل، على جدار منزل العم شوكت، على سبيل المثال، كتبنا: هذا منزل العم شوكت، زوجته باجي نادرا غادرت إلى كردستان بعد حرب الخليج الثانية، وهو يعيش حاليا في منزل أم ريتا، حيث سرق لصوص مجهولون أثاث هذا المنزل" (الراوي، 2016: 204(

2.وظائف السجل في البنية الروائية

الوظائف السردية التي يؤديها السجل كثيرة في هيكل رواية "ساعة بغداد". في الرواية، يشكل السجل هيكلا هيكليا مركزيا تتفرع منه عدة فروع، ويرتبط بمعظم العناصر السردية الأخرى. من أبرز وظائفه: الوظيفة الهيكلية التي يساهم من خلالها السجل في تنظيم بنية الرواية وتقسيمها إلى وحدات سردية مترابطة، والوظيفة الوثائقية التي يحول من خلالها السجل الذكريات الشفوية إلى نص مكتوب يحميها من الفقدان والتشويه.

"تطورت فكرتنا، وقررنا أن نكتب في نفس السجل عشرين صفحة عن كل عائلة في المحلة، ملخصين حياتهم وذكرياتنا معهم، وهذه هي المرة الأولى التي يكتب فيها تاريخنا الشخصي كجيران بعد تهديد ذاكرتنا بالانقراض" (الراوي، 2016: 204(

ومن الجدير بالذكر أن الأسطوانة ترافق الراوية في هجرتها، لتصبح جسرا يربطها بمكان نشأتها، ووسيلة لاستحضار المكان الغائب من خلال كلماته المكتوبة. السجل الذي يرافق الراوية في هجرتها، ويصبح "كنزا سريا" تخفيه عن أعين المتطفلين، هو رمز لهذا الإرث الغامض من الذكريات، الذي لا يزال يطارد المهاجر أينما ذهب.

"عندما غادرنا بغداد، حملتها معي في حقيبتي (ساعة بغداد - سجل المحلة)، واحتفظت بها قريبة مني في منزلنا في الأردن، كأنها كنز سري أخفيه عن أعين المتطفلين، أفتحها من حين لآخر، أقرأ بعض الصفحات التي كتبتها بيدي سطرا بسطر، ومن خلال كلماته أتذكر وجوه الجيران، منازلهم وتفاصيل حياتهم، وأتذكر الأغاني التي أحبوها" (الراوي، 2016: 239(

كما يؤدي الأسطوانة وظيفة تفسيرية تفتح إمكانيات متعددة لفهم العلاقة بين الكتابة والذاكرة، بين النص والتجربة المعيشية. السجل ليس نسخة طبق الأصل من الواقع، بل هو إعادة بناء له تخضع لاختيارات وترتيبات معينة. الراوي الذي يقرأ في السجل بعد سنوات من كتابته يكتشف ما لم يقصده عند كتابته، ومن خلال كلماتها المكتوبة، تستحضر ذكريات نسيتها أو أخفتها في أعماق الذاكرة (بهراوي، 1990: هذه العلاقة التفاعلية بين الكتابة والقراءة، بين الكتابة والحفظ، تجسد الطبيعة الديناميكية للذاكرة، الذي لا يتوقف أبدا عن إعادة بناء نفسه.

خامسا: الأشياء والأماكن كمحفزات للذاكرة

.1البيوت كحاملات للذكريات

في رواية "ساعة بغداد"، تحتل المنازل مكانة خاصة كحاملات للذكريات والمحفزات التي تستحضرها. من منظور السرد في الرواية، المنزل ليس مجرد مبنى مادي يسكن، بل هو وعاء للذكريات يحفظ آثار وذكريات وتجارب السكان. توضح الراوية هذه العلاقة الحميمة بين المنزل والذاكرة في نقاط مختلفة من الرواية، مشيرة إلى أن المنزل الذي يخطر ببالها أولا عندما تحاول تذكر الحي هو منزل العم شوكت وزوجته باجي نادرا.

"لا أتذكر، وحتى نادية لا تتذكر، والداي لا يتذكران، وعائلتها لا تتذكر متى عاش العم شوكت مع باجي ناديرا في هذا المنزل. البيوت التي ولدت قبلنا والأشجار التي تنمو قبل أن نرى العالم، ليس لها تاريخ يتذكره الناس. منزلهم يحتوي على سياج منخفض تتسلقه أشجار إلياس وأغصان الشباوي لمنع الحديقة الأمامية من التدخل في الشارع... هذا المنزل وحده يحمل رائحة ذكرى مختلفة، إنه أول بيت يخطر في بالي عندما أحاول تذكر المنطقة" (الراوي، 2016: 41(

يعبر هذا المقطع عن فكرة أساسية في الرواية: أن البيوت لها تاريخ يسبق وجود الشخصيات، وأن ذاكرة المكان تسبق ذاكرة الأفراد. المنزل، الذي لا يتذكر أحد متى كان مأهولا، يحمل معه ذكريات سبقت تلك الخاصة بالسكان الحاليين. وفي سياق ذي صلة، يوضح سجل الراوي قائمة المنازل وسكانها، محولا المكان إلى نص مكتوب يمكن العودة إليه.

"البيت ذو الباب الأسود العريض هو بيت أم علي، والبيت الذي تدخله عربة حمراء هو بيت أم مناف، والبيت الذي تتدلى عليه كرومه على بيتنا هو بيت أم حسام، والبيت الذي يصعد إليه اللبلاب ويغطي نوافذه هو بيت أم ويجدان، المنزل الذي يعزف أمامه الشيطان هو بيت أم أسامة، المنزل الذي تزوجت فيه ابنتهما وجاءت العديد من السيارات الملونة وأخذتها مع الموسيقى هو بيت أم سالي، المنزل الذي ندخله في ليلة رأس السنة ونغني فيه هو بيت أم ريتا." الراوي، 2016: 205(

يشكل هذا التعداد المفصل للمنازل وسكانها خريطة لذكريات المنطقة، حيث يرتبط كل منزل بميزة مميزة أو شخصية محددة، بحيث يصبح المكان نفسه نصا يمكن قراءته وتذكره واستحضاره من خلال هذه العلامات المميزة. وفقا لسعيد يكتين، فإن هذا الارتباط بين المكان والذاكرة هو أحد أبرز سمات الرواية المعاصرة التي تتناول موضوع الهجرة والنزوح (يكتين، 1997: 245). المنزل الذي يتركه سكانه لا يفقد وجوده المادي فقط، بل أيضا كحامل للذكريات التي تشكل هويتهم الجماعية.

.2الساعة كرمز للزمن والذاكرة

في رواية "ساعة بغداد"، تحمل الساعة دلالات رمزية متعددة تتجاوز وظيفتها الزمنية الفورية. ليس مجرد أداة لقياس الزمن، بل هو رمز للعلاقة بين الزمن والذاكرة، بين ما يمر وما يحفظ. تظهر الساعة من بداية الرواية في مشهد الحلم الافتتاحي، حيث يتركها الراوي في حلم صديقته نادية بعد أن يطرد بقية الأشياء. هذا الحفظ للساعة في الحلم يشير إلى مكانتها الخاصة في نظام الذاكرة السردية.

"برفق، أخذ معصمها الأيسر وطبع عليه ساعة صغيرة بلسانه، ثم أخذ يدي اليسرى وفعل الشيء نفسه. اقتربت منه زوجته، باجي ناديرا، وقالت له: "لا تفعل هذا." قبلتنا باجي ناديرة برقة واعتذرت لنا، كنا نبتسم لها وفي الوقت نفسه نظرنا إلى الساعة المطبوعة على الجلد وهي تختفي تدريجيا" (الراوي، 2016: 17(

هذا الفعل الرمزي يعبر عن رغبة في نقش الزمن في الجسد، لجعل الذاكرة جزءا من الجسد نفسه لا يمكن محوه. الساعة المطبوعة على المعصم تذكر بالوشوم كطقس ثقافي يسجل الانتماء والهوية، وهنا ليست

مجرد زينة، بل علامة على الانتماء لزمن ومكان محددين. الساعة في ساعة بغداد مرتبطة أيضا بفكرة الانفتاح على المستقبل، فهي ليست مجرد ذكرى من الماضي، بل أيضا أمل للمستقبل. الساعة التي تحمل اسم بغداد تذكرنا بوجود هذه المدينة عبر الزمن، بماضيها وحاضرها ومستقبلها (مرتضد، 1998: 234). السجل المسمى "ساعة بغداد" يصبح بديلا عن المكان الذي لا يمكن حمله، ووقتا مكتوبا يمكن العودة إليه في أي لحظة.

سادسا: الخلط بين الحلم والواقع كبنية سردية

1.تداخل الأحلام مع الواقع

واحدة من أبرز السمات السردية في رواية "ساعة بغداد" هي التداخل المستمر بين الحلم والواقع، بين الخيال والواقع، بين ما كان وما يتخيل أن يكون. هذا التداخل ليس مجرد تقنية أسلوبية، بل تعبير عن طبيعة الذاكرة نفسها، حيث تختلط الحقائق مع الأوهام، وتمزج التجارب الحياتية مع التجارب المتخيلة. يعلن الراوي هذا الالتباس في عدة أماكن، معلنا أن التمييز بين الحلم والواقع ليس دائما سهلا أو ممكنا.

"نادية وأنا نخلط الأحلام مع الحقائق، والأوهام والحقائق، لكنهم ينسون كما أتذكر، في ذلك اليوم خرج فاروق من المنزل مرتديا شورت وقميص رياضي، ودون أن يغلق الباب خلفه، تبعنا" (الراوي، 2016: 120)

هذا الاعتراف المباشر بالارتباك هو مفتاح فهم الهيكل السردي للرواية بأكملها. لا يقدم السرد نفسه كوثيقة تاريخية دقيقة، بل كإعادة بناء للماضي حيث تتشابك الحقائق مع الأوهام. ومن اللافت أن الراوية تميز نفسها عن ناديا في التعامل مع هذا الالتباس: ناديا تنسى أثناء التذكر، مما يضيف طبقة جديدة من التعقيد لمسألة الذاكرة والنسيان.

"هذا المشهد في ذاكرتي منذ زمن طويل، وكنت مرتبكا ما إذا كان أحد أحلام نادية أم أنه حقا نتاج خيال ماركيز! أحيانا كنت أعتبره مشهدا من خيالي" (الراوي، 2016: 208)

هذا الاعتراف بالالتباس بين أحلام الشخصيات والنصوص الأدبية الأخرى يضيف بعدا ميتاسردرالي للرواية، حيث تصبح الكتابة نفسها موضوع تساؤل وشك. وفقا لعبد الملك مرتضد، فإن هذا الخلط بين الحلم والواقع هو أحد أبرز تقنيات السرد في الأدب المعاصر التي تحاول استحضار الماضي بطريقة غير خطية (مرتضد، 1998: 278.).

2.الوظائف الفلسفية للخلط

هناك العديد من الوظائف السردية والدلالية التي تؤديها الخلط بين الحلم والواقع في رواية "ساعة بغداد". أبرز هذه الجوانب هو الوظيفة الفلسفية التي من خلالها يطرح أسئلة أساسية حول طبيعة الواقع والحقيقة والوجود. في هذا السياق، يأتي حوار الراوي مع "الساحر" الذي يضعف الحدود بين الحلم والواقع، بين الواقع والوهم.

"حسنا، يا صغيري، أنا مجرد فكرة في خيال المنطقة، والحي مجرد فكرة في رأسي، كل ما يخطر على أعيننا هو مجرد فكرة، لا شيء حقيقي في الواقع، كلنا محبوسون في خيالنا والحقيقة أن تجاربنا مجرد أفكار، الوجود كله هو مجموعة من الأفكار، هذه هي الحقيقة الوحيدة، لا تصدقوا أحدا ولا تخبروا أحدا عنها" (الراوي، 2016: 168)

هذا الخطاب الفلسفي يضعف الحدود بين الحلم والواقع، بين الواقع والوهم، ويجعل السرد نفسه مجرد فكرة في خيال المنطقة التي يشترك فيها جميع سكانها. وظيفة مهمة هي أيضا الوظيفة النفسية التي يعبر من خلالها الارتباك عن الحالة النفسية للشخصيات التي تعيش بين عالمين: عالم الماضي الذي لم يعد موجودا، وعالم الحاضر الذي لا يشبه الماضي. 2018: 156). الشخصيات التي لا تستطيع العودة فعليا إلى بغداد يمكنها العودة إليها بحلم وخيال.

السابع: هيكلة الرواية ككتب داخلية

1.الكتب الداخلية وعلاقتها بزمن السرد

تتميز رواية "ساعة بغداد" ببنية معقدة تتكون من عدة كتب داخلية، لكل منها وقته وشخصياته وعبءه الدلالي. من اللافت أن هذه الكتب ليست مرتبة بترتيب زمني خطي، بل تتقاطع وتتداخل بطرق تعقد العلاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل وتجعلها أكثر جدلية.

"الكتاب الأول هو طفولة الأشياء الصافية" (الراوي، 2016: 10(
تبدأ الرواية بهذا الكتاب، الذي يركز على طفولة الراوية وعلاقتها بصداقتها بناديا واكتشافها لعالم الأحلام والذاكرة المشتركة. أما بالنسبة ل "كتاب المستقبل"، فهو يخبرنا بمصير الشخصيات بعد مغادرتهم بغداد، في نوع من الترقب السردي الذي يخبر القارئ بما سيحدث قبل أن يحدث في الهيكل السردي.
"المستقبل": الصفحة (9) نادية بعد لحظة المغادرة. ولدت نادية في اليوم الأول من فبراير، وهي الابنة الثانية للعائلة بعد شقيقها مویاد... تعرف قصة طفولتها من الملجأ الذي يحصن ضد الحروب، حتى آخر دمعة سقطت من عينيك عندما لوحت لها في لحظة الوداع" (الراوي، 2016: 256(
هذا الانتقال إلى المستقبل يذكرنا بما أسماه جينيت "التوقع" أو "الفلاش فورورد" (جينيه، 1997: 189). الجديد في هذا الهيكل هو أنه يربط الماضي بالمستقبل من خلال جسور سردية متعددة، حيث يكمل كتاب المستقبل ما بدأه الكتاب الأول، ويجيب على أسئلة كانت معلقة في الكتب السابقة. يساهم هذا الهيكل في بناء علاقة جدلية بين الماضي والحاضر والمستقبل، حيث لا يستحضر الماضي كزمن منتهى، بل كجزء من الحاضر والمستقبل للشخصيات.
.2الذاكرة والهوية في سياق الهجري
تتناول الرواية قضية الهجرة وتأثيرها على الهوية والذاكرة بعمق، وتظهر كيف أن الهجرة من العراق تحدث تحولات عميقة في العلاقة بين الشخصيات وماضيهم. ما هو مدهش هو أن الهجرة لا تمحو الذاكرة، بل تحولها إلى عبء ثقيل يحمله المهاجر معه أينما ذهب.
"وصلت نادية مع عائلتها إلى دمشق، في نفس الليلة التي تساقط فيها الثلج على هذه المدينة لأول مرة ذلك العام، وكان البياض الواسع والمهيب هو الشيء الوحيد الذي منعها من البكاء واستعادة ذكرياتك التي سيطرت عليها طوال ساعات الطريق... أحمد هو الماضي كله، والحاضر الذي تبحث عنه" (الراوي، 2016: 256(
البياض الواسع للثلج هو نوع من التمهيد للصفحة البيضاء الجديدة التي سيبدأ عليها حياته الجديدة. بيدا هو نموذج آخر للتعامل مع الهجرة والذاكرة، حيث يختار أن يولد من جديد في كندا.
"عند فجر يوم كندي بارد قارس، نهضت ويدي على سريري وقررت أن أكتب رواية طويلة عن المدينة الكندية الصغيرة... لا أعرف شكل هذه الأرض المغطاة بالجليد، ولا لون العشب الذي غطاها، لكنني أعلم أنني ولدت من جديد على أرض هذه القارة البيضاء بعيدا عن المحيط، لا أتذكر كيف وصلت إلى هناك، ولا البلد الذي جئت منه " (الراوي، 2009: 254(
بيدا، التي اختارت أن تولد من جديد في كندا، تمثل خيارا مختلفا عن الراوية التي حاولت الحفاظ على ذكراها من خلال التسجيل، حيث تبدو بيدا أكثر استعدادا للتخلي عن الماضي والبدء من جديد في سياق جديد كليا. هذا التباين في معالجة الذاكرة والهجرة يثري الدلالات الفلسفية للرواية ويفتح آفاقا متعددة للتفسير (شهيد، 2008: 134). لا تقدم الرواية إجابة واحدة لكيفية التعامل مع الماضي، بل تقدم نماذج متعددة تتراوح بين الالتزام بالذاكرة عبر السجل والتخلي عنه من خلال الولادة من جديد.
الخاتمة
اختتم هذا البحث بمجموعة من النتائج المتعلقة بتقنيات الذاكرة واستحضار الماضي في رواية "ساعة بغداد" للروائي العراقي شاكر الراوي. أظهرت البحث أن الرواية تستثمر في مجموعة واسعة من تقنيات السرد التي تهتم باستحضار وإعادة بناء الماضي، وأن هذه التقنيات مدمجة لتشكيل نظام سردي متكامل يجعل الذاكرة محور العمل الروائي بأكمله. في طليعة هذه التقنيات: دخول الأحلام كوسيلة للوصول إلى ذكريات الآخرين، استخدام الأشياء والأماكن كمحفزات للتذكر، الكتابة في السجل كأداة لمكافحة النسيان، استخدام صيغة "أتذكر" كاسترجاع سردي، خلط الحلم والواقع كبنية سردية معقدة، وهيكلة الرواية ككتب داخلية تربط الماضي بالمستقبل من خلال علاقات جدلية متشابكة.
وأظهرت البحث أيضا أن الذاكرة في هذه الرواية ليست فردية بحتة، بل هي ذاكرة جماعية مشتركة بين عدة شخصيات وترتبط بمكان واحد، وهو حي البغدادي. فالسجل الذي يسجل تاريخ المنطقة يمثل تجسيدا ماديا لهذه الذاكرة الجماعية، وأداة لحمايتها من أن تنسى وتضيع في ظل ظروف الهجرة والنزوح التي ضربت العراق وشعبه.

أظهرت البحث أن العلاقة بين السرد والذاكرة في الرواية ليست علاقة أحادية الاتجاه، بل هي تفاعل متبادل؛ السرد يعيد بناء الذاكرة وينظمها ويعطيها الأولوية، وتوفر الذاكرة للسرد مادته الأساسية. الالتباس بين الحلم والواقع، الذي يتكرر في الرواية، يعبر عن طبيعة الذاكرة نفسها، حيث تختلط الحقائق مع الأوهام، والتجارب الحياتية مع التجارب المتخيلة. هيكل الرواية ككتب داخلية يساهم أيضا في بناء علاقة معقدة بين الماضي والحاضر والمستقبل، حيث يخبرنا "كتاب المستقبل" عن مصير الشخصيات قبل أن نعرف كيف وصلوا إلى هذا المصير، في نوع من الترقب السردي الذي يمنح النص طابعا تفسيريا عميقا.
وأخيرا، تظهر البحث أن رواية "ساعة بغداد" تمثل مثالا مؤشرا على كيفية تعامل الأدب الروائي مع مشاكل الذاكرة والهوية في السياق العراقي المعاصر، حيث جعلت الحروب والحصارات والهجرة والنزوح من الحفاظ على الذاكرة ضرورة وجودية ملحة. تعبر الرواية، التي تصبح فيها الكتابة وسيلة لمحاربة النسيان، عن إيمان عميق بقوة السرد في الحفاظ على تهديد النسيان، وإعادة بناء هوية جماعية تتحطم مكوناتها في ظروف التهجير والشتات. السجل الذي يرافق الراوية في هجرتها، ويصبح "كنزا سريا" تخفيه عن أعين المتطفلين، هو رمز لهذا الإرث الذكري الذي لا يزال يطارد المهاجر أينما سافر، ليس كعبء يثقل كاهله، بل ككنز يثري هويته ويحافظ على جذوره.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر الأولية
.1الراوي، شهد. (2016). ساعة بغداد. لندن: دار الحكمة للنشر والتويع.
ثانيا: المراجع الثانوية باللغة العربية
.2بهراوي، حسن. (1990). بنية شكل الرواية: دراسة مقارنة في ثلاث روايات. دار البيضاء: دار نشر توبكل.
.3جينيه، جيرار. (1997). خطاب القصة: بحث في المنهجية. (محمد معتصم وآخرون، مترجمون). القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
.4الشهيد، جمال. (2008). الذاكرة في الرواية العربية المعاصرة. بيروت: دار النشر العربية للعلوم.
.5عيد، ليهمان. (2012). تقنيات السرد في ضوء المنهج البنيوي. الجزائر: دار الهدى.
.6مرتضد، عبد المالك. (1998). في نظرية الرواية: دراسة في تقنيات السرد. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة، العدد 240).
.7هالبوش، موريس. (2011). الذاكرة الجماعية. (نسرين الزهر، مترجمة). دمشق: دار المواطن للنشر والتوزيع.
.8يقطين، سعيد. (1997). الرواية والتراث السردي: من بنية القصة إلى بنية الرواية. بيروت: المركز الثقافي العربي.
.9يوسف، أمنى. (2018). تقنيات السرد في النظرية والتطبيق. القاهرة: دار الفكر العربي.
.10ريكور، بول. (2006). الزمن والسرد: الكتاب الأول. (سعاد عابد، مترجم) الجزائر: منشورات الاختلاف.
ثالثا: مراجع أجنبية
.11جينيت، ج. (1980). الخطاب السردي: مقال في المنهجية. (ج. إ. لوين، ترجمة). إيثاكا: مطبعة جامعة كورنيل.
.12هالبواخس، م. (1992). عن الذاكرة الجماعية. (ل. أ. كوزر، ترجمة). شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو.
.13ريكور، ب. (1984). الزمن والسرد، المجلد الأول. (ك. ماكلولين & د. بيلاور، ترجمة). شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو.